

تمهيد:

مما لا ريب فيه أنّ الدراسة النظرية تسعى لضبط شبكة المصطلحات الدائرة في فلك المدونة المنهجية خشية الاختلاط، والاضطراب الذي كثيراً ما يقع فيه المتلقي، ونحن في خضم بحر المصطلحات وتلاطم أمواجهها، ما بين مصطلح أصيل نجد جذوره في تراثنا النقدي العربي، وآخر جديد غريب أنتجته حضارة الغرب عبر اشتغالها على الحقول المعرفية والنقدية المختلفة، ولاسيما لمن يروم الحفر في مفهوم النص والنصية وتنوع المنهجيات المتداخلة معها، طالما أن محورها المركزي الذي تدور حوله هو (النص)، فكثيراً ما يتردد إلى مسامعنا مصطلحات: كل (النص)، و(الخطاب)، و(السياق)، وغيرها كثير، وقد احتلت هذه المصطلحات موقعاً مركزياً في البحوث والدراسات التي تندرج في مجالات (تحليل الخطاب)، و(لسانيات الخطاب/النص)، و(نحو النص)، وغيرها حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفاً ينتمي إلى هذه المجالات يخلو من هذه المفاهيم الثلاثة⁽¹⁾ أو من المفاهيم المرتبطة بها كالترايط والانسجام والتعالق، إذ تلقى بعض هذه المصطلحات رواجاً في حين يتضاءل بعضها الآخر، في الوقت الذي ما زالت دائرة الاصطلاح تعاني من أخذ بعض المصطلحات ورد بعضها الآخر، وأكفّ الدارسين تتقاذف تلك المصطلحات بين قبول ورفض وتسخير وهجر، وغايتها كلها إبراز جماليات النص، وتبسيط الأضواء على عناصره، وتشكلاته ومستوياته سبباً لأغواره.

ولو سألنا عن سبب ذلك التداخل والتذبذب المصطلحي، لوجدنا أنه يعود إلى تطور الخلفيات النظرية، والإجراءات المنهجية، لذا فقد نشأ تحليل الخطاب (نصاً/خطاباً) في حضي لسانيات الجملة، إذ لم ترع في الجملة إلا صحة التركيب، واتساق المعنى بغض النظر عن انسجامه مع سياقه⁽²⁾، في حين أنّ النظر إلى النص لا يتم إلا من خلال تشكله ضمن سياق أو سياقات معينة، ويحمل خطاباً أو خطابات متنوعة ذات أنساق مختلفة⁽³⁾.

(1) - ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق "مثل من سورة البقرة"، خلود العموش، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط: 01، 2008م، ص: 05.

(2) - ينظر: بعض خصائص الخطاب، محمد مفتاح، علامات في النقد، المجلد: 09، العدد: 35، 2000م، ص: 02.

(3) - ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش، ص: 05.

إنّ الحديث عن مفهوم محدّد للنص يقودنا إلى مجموعة كبيرة من التعريفات التي تعكس وجهات نظر متعددة ومختلفة تبعا للتعدد والتباين في المدارس التي ينتمون إليها والمرجعيات الفكرية والتراكمات المعرفية لكل لغة، لذا فقد ارتبط ظهور مصطلح النص « بظهور عدد من المؤسسات في المجتمع البشري وتطورها؛ أولها ظهور الكتابة من حيث هي وسيلة لتجاوز ضعف الذاكرة وفعل الزمن، فيتخذ الملفوظ حيزا في الفضاء ويستقل بوجوده فيخترق العصور»⁽¹⁾.

أولا: النصّ في إطار المعجم والاصطلاح والوظيفة:

1 - النصّ في إطاره المعجمي:

تتعدد المعاني المعجمية للمشتقات من الأصل (ن ص ص) في المعجم العربي، فمنها في "لسان العرب": « ما دل على الرفع بنوعيه الحسي والمادي، فالنصّ رفعك الشيء نصّ الحديث ينصّه نصّا رفعه وكل ما أظهر فقد نصّ، وقال عمرو بن دينار ما رأيت رجلا أنصّ للحديث من الزُّهري أي أرفع له وأسند، يقال نصّ الحديث إلى فلان أي رفعه... ونصّ المتاع نصّا جعل بعضه على بعض... والنصّ والنصيص السير الشديد والحثّ... وأصل النصّ أقصى الشيء وغايته ثم سُمّي به ضرب من السير سريع ابن الأعرابي النصّ الإسناد إلى الرئيس الأكبر والنصّ التوقيف والنصّ التعيين على شيء ما ونصّ الأمر شدته... قال الأزهري النصّ أصله منتهى الأشياء ومبلغ أفصاها... ونصّ القرآن ونصّ السنة أي ما دلّ ظاهر لفظها عليه من الأحكام»⁽²⁾.

وفي معجم "العين": « نصصت الحديث إلى فلان نصّا، أي رفعتة... والمنصّة التي تقعد عليها العروس... والمناشطة نصّ العروس أي تُقعدُها على المنصّة، وهي تنصّ، أي تقعدُ عليها أو تُشرفُ لثرى من بين النساء»⁽³⁾.

(1) - نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، ط: 01، بيروت، 1993م، ص: 12.

(2) - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط: 01، (دت)، 97/07، (مادة: ن ص ص).

(3) - معجم العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، (دط)، (دت)، 86/07-87، (باب الصاد والنون ص ن، ن ص مستعملان).

وقد جاء في مختار الصحاح في مادة (ن ص ص) ما يلي: «نَصَّ الشَّيْءُ: رَفَعَهُ وَبَابُهُ رَدٌّ، وَمِنْهُ (مِنْصَّةُ) الْعُرُوسِ، وَنَصَّ الْحَدِيثَ إِلَى فُلَانٍ: رَفَعَهُ إِلَيْهِ. وَنَصَّ كُلَّ شَيْءٍ: مُنْتَهَاهُ»⁽¹⁾.

وما يلاحظ في هذه المعاجم العربية القديمة أنه ليس هناك اختلاف يذكر في معنى نصّ، فما نجدّه عند "الفراهيدي" نجدّه عند "ابن منظور"، ونجدّه كذلك عند "الرازي".

ونستنتج من التعريف اللغوي لمادة (ن ص ص) أنّ معناها يدور حول محاور أربعة؛ هي:

- الرفع بنوعيه المادي والمعنوي: أي رفع المتكلم نصه لكي يدركه ويفهمه المتلقي.

- الإظهار: وهو متعلق بالأول، فالنص المرفوع يظهر للعيان.

- ضم الشيء إلى الشيء: ضم الجمل بعضها إلى بعض بالعديد من الروابط حتى تتسق.

- أقصى الشيء ومنتهاه: تمثيل لكونه أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها.

هذه المعاني وغيرها التي دوّنها أصحاب المعاجم العربية، قال عنها أحمد بن فارس (ت395هـ): إنها

ترجع إلى «أصل صحيح يدلّ على رفعٍ وارتفاعٍ وانتهاءٍ في الشَّيْءِ»⁽²⁾. فلا ذِكر في المعاجم العربية

لدلالة (نصّ) على مدونة، أو كتاب، أو خطاب، وكل ما هناك أنه اشتقّ من (نصّ) معنى الظهور،

فقليل: نصّ القرآن، ونصّ السنّة. وقد يرجع ذلك إلى أنّ الثقافة الإسلامية هي ثقافة شفويّة غير مكتوبة،

فمعلوم أن تدوين الأدب قد تأخّر كثيرا؛ فالقرآن الكريم من أوائل النصوص التي دوّنها العرب.

أما المعنى الشائع بين متكلمي اللغة العربية المعاصرة فهو صيغة الكلام الأصلية التي وردت في المعاجم

الحديثة كـ"المعجم الوسيط" إذ «يقال: نصّ الحديث: رفعه وأسندّه إلى المحدث عنه. والنصّ: صيغة

الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف. والنصّ ما لا يحتملُ إلّا معنىً واحداً أو لا يحتملُ التأويل. ومنه

قولهم: لا اجتهدَ مع النصّ، والنصّ عند الأصوليين: الكتاب والسُنّة. والنصّ من الشيء: منتهاه ومبلغُ

(1) - مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط: 05، (1420هـ-1999م)، ص: 312، (مادة: ن ص ص).

(2) - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (دط)، (1399هـ-1979م)، 356/05. (مادة: نصّ).

أقصاه»⁽¹⁾. فقد تجاوز أصحاب المعاجم الحديثة المعاني التي وردت في المعاجم القديمة وأثبتوا ما قرّ في ذهن مستعملي اللغة العربية من مفهوم النص، وعدّوه من الدلالات المولّدة.

ويمكن الربط بين معنى (النص) بعدّه الصيغة الأصلية لكلام منشئه، والمعنى اللغوي، بأنّ النص يُرفع إلى منشئه مما يفسر العلاقة المتينة بين النص وصاحبه ضمن الإطار التداولي، كما أنّ له بداية ونهاية تفهمان من ظهوره ولا يمكن أن يُدرس نص ما إلا إذا كانت له بداية ونهاية⁽²⁾، ويبدو أنّ انتقال دلالة الكلمة ممّا كان قارّاً في المعاجم القديمة إلى دلالاته في المعاجم الحديثة حصل بعملية مجازية، وهي التي أشار إليها الزمخشري (ت538هـ) في كتابه أساس البلاغة⁽³⁾. أي انتقال هذا المعنى المجازي إلى الاستعمال، وغياب أو تهميش الدلالات الأولى للكلمة، وثبوت المعنى الحديث في المعاجم الحديثة، فهذه العملية على الرّاجح أنّها حدثت في ميدان الدراسات القرآنية من تفسير وفقه، ولم تحدث في ميدان العلوم اللغوية من نحو وبلاغة⁽⁴⁾.

أمّا في المعاجم الغربية فنجد أن الكلمة الفرنسيّة (texte) أخذت من مادة (textus) اللاتينية التي تعني النسيج، كما تطلق هذه الكلمة على الكتاب المقدس أو كتاب القدّاس، وتعني منذ العصر الإمبراطوري ترابط حكاية أو نص، والنص منظومة عناصر من اللغة أو العلاقات، وهي تشكّل مادة مكتوبة أو إنتاجاً شفهيّاً أو كتابيّاً⁽⁵⁾. أي أنّ النص بذلك عبارة عن نسيج من العلاقات اللغوية المركبة في إطار سلسلة من الجمل المنسوجة والمحبوكة بنويا ودلاليا⁽⁶⁾.

(1) - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط:04، (1425هـ-2004م)، ص: 926.

(2) - ينظر: إشكالات النص المداخلّة أنموذجاً دراسة لسانية نصية، جمعان بن عبد الكريم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط:01، 2009م، ص: 25.

(3) - ينظر: أساس البلاغة، أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، 1998م، 275/02، مادة (ن ص ص).

(4) - ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، جامعة منوبة، تونس، ط:01، 2001م، 191/01.

(5) - See: Dictionnaire le Robert, Robert Micro, Alain Roy et autres, Paris-Montréal Canada, 2^{ème} édition, 1998, p: 1321.

(6) - See: Le grand Dictionnaire Encyclopédique du XXI siècle, édition Philipe Auzou, Paris, 2001, p:1106.

ولقد ذهب "محمد الهادي الطرابلسي" إلى أنّ معنى النسيج يتوفر في المصطلح الأعجمي المقابل لمصطلح نص (texte) على أنّ هذا المعنى ليس غريباً عن تصوّر العرب للنص، فقد تبين لنا أنّ الكلام عند العرب، لا يكون نصاً إلا إذا كان نسيجاً، ففي "اللسان" المادتان (ن ص ص) و(ن س ج) تلتقيان؛ حيث النص: جعل المتاع بعضه على بعض، والنسيج ضمّ الشيء إلى الشيء، فالأول تركيب والثاني ضمّ، والتركيب والضمّ واحد⁽¹⁾.

ونجد هذا المصطلح أيضاً في معجم (Oxford) بمعنى الشكل الذي يمثل المادة المكتوبة، أو بالأحرى الشكل المكتوب لخطاب، أو مسرحية، أو مقالة⁽²⁾.

وعليه فالمتملّ لأصل الاشتقاقين في اللغتين العربية، واللاتينية يجد نوعاً من الاتفاق بينهما، فالأصل العربي لمادة (ن ص ص) يدلّ على ضم الشيء إلى الشيء، أما الأصل اللاتيني فيوحي بجهد القصد، ويوحي أيضاً بالاكتمال والاستواء⁽³⁾.

وقد عُرّف النص على أساس عدة اعتبارات منها⁽⁴⁾:

- مكونات الجملة وتتابعها.
 - الترابط بين الجمل.
 - التواصل النصي والسياق.
 - الإنتاجية الأدبية أو فعل الكتابة.
 - المقاربات المختلفة والمواصفات التي تجعل الملفوظ نصّاً.
- ويستنتج من هذه التعريفات أنّها تعتبر النص ما يرتفع أو يظهر في صورة حدث كلامي يمثله الصوت المسموع أو في صورة إنتاج خطي يمثله وتظهره الكتابة.

(1) - ينظر: نسيج النص، الأزهر الزناد، ص: 06.

(2) - See: Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English, A.S. Hornby, and Sally Wehmeier, Sixth edition, p: 1343.

(3) - ينظر: نسيج النص، الأزهر الزناد، ص: 17.

(4) - نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط: 01، 2001م، ص: 21.

ونشير في هذا الصدد أنّ "عمر محمد أبو خرمة" انتقد الباحثين والدارسين الذين حصروا مفهوم النصّ في معاني الرفعة والظهور والوضوح والانكشاف، لأنّ « النصّ في العربية لا يعني الظهور والوضوح والانكشاف - كما ذهب إلى ذلك غير واحد - دون كل المعاني المحتملة للفظ (نص)، بل يدل هذا اللفظ جملة على أمور أحدها الوضوح والانكشاف، ويحمل دلالات أخرى أيضا ليست أقل حضورا في الذهن من الوضوح والانكشاف، وكل تلك المعاني التي عرضت أعلاه كانت حاضرة في الذهن لما وضع العربي هذا اللفظ إزاء مفهومه الاصطلاحي، وقرر معاني أخرى للنص الذي اعتبرها من مميزات النص؛ تتمثل في الظهور، والثبات، وعلو المصدر، والاستقصاء التام، والتركيب، والترتيب، والاقتصاد»⁽¹⁾.

وكما أسلفنا الذكر، أن التعريفات قد تعددت واختلفت حول تعريف الجملة، فبالمقابل كذلك أن النصّ في الاصطلاح لم يكن أسعد حظاً من الجملة؛ فتعددت تعريفاته، وتشعبت وتداخلت إلى حد الغموض أحيانا أو التعقيد أحيانا أخرى، فمنهم من تساوى عنده هذا المصطلح مع مصطلح الخطاب، كما عند "محمد خطابي"، وفُصل كعند "بارت" (Roland Barthes) و"كريستيفا" (Julia Kristiva) و"الأزهر الزناد".

2 - النصّ في إطاره الاصطلاحي:

يقول الأزهر الزناد: « تعريف النصّ مثل كل تعريف أمر صعب، لتعدد معايير هذا التعريف ومداخله ومنطلقاته، تعدّد الأشكال والمواقع والغايات التي تتوفر فيما نطلق عليه اسم (نص)»⁽²⁾، فإذا أردنا أن نسلط الضوء على مفهوم النصّ في الدراسات الغربية والدراسات العربية نجده - كذلك - شغل فكر وبال الباحثين، والدارسين الغرب، والعرب في ضبطه وحدّه في تعريف موحد، فكل واحد من هؤلاء الباحثين أدلى بدلوه، ودافع عن رأيه، وذاد عن مذهبه، ولكن لم يحصل من هذا كلّ إجماع على توحيد الرؤى والأهداف في تأسيس تعريف جامع مانع، شاف وكاف لهذا المصطلح.

(1) - ينظر: نحو النصّ نقد نظرية وبناء أخرى، عمر محمد أبو خرمة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط: 01، 2004م، ص: 29.

(2) - نسيج النصّ، الأزهر الزناد، ص: 110.

2 - أ) عند علماء العرب:

إنّ انتقال أيّة مفردة بين مجالات العلوم تمنحها دلالات أخرى قد تقترب من دلالتها اللغوية وقد تبتعد عنها، هذه الدلالات خاضعة للسياق الذي وردت فيه، والحقل المعرفي الذي يتبناها. ومن هذه المفردات كلمة (نص) التي استعملت في ميدان العلوم الدينية -الفقه وعلم الأصول خاصة- فقد تحولت إلى « مصطلح دلالي يشير إلى البين بذاته الواضح وضوحاً لا يحتاج معه إلى بيان آخر، وذلك بالمقارنة بأنماط دلالية أخرى تحتاج إلى بيان وشرح مستقلين عنها »⁽¹⁾. فالنص إذن هو الواضح البين، فهذه الدلالة الاصطلاحية تشترك في جانب كبير منها مع دلالة الكلمة اللغوية، التي تشير إلى « ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل: ما لا يتحمل التأويل »⁽²⁾، وهي مدار ورود الكلمة في كتب الفقه والأصول.

ف"الشافعي" (ت204هـ) يشير إلى هذا المعنى الاصطلاحي حين يصف النص بأنه « مستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير »⁽³⁾ ونجده يضع النص مقابل الاستنباط عند حديثه عن أهمية طلب العلم بما أنزل الله في كتابه العزيز، يقول: « فحقّ على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً »⁽⁴⁾. ويقول في موضع آخر: « فإنّ من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرّيب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة »⁽⁵⁾. وفي كلامه عن الوجوه التي أبان الله تعالى لخلقه في كتابه نجده يؤكّد معنى النص الذي أشار إليه في النصوص السابقة، يقول: « فمنها ما أبانه لخلقه نصاً. مثل جمل فرائضه، في أن عليهم صلاةً وزكاةً وحجاً وصوماً وأنه حرّم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن، ونصّ الزنا والخمر، وأكل الميتة والدم،

(1) - النص السلطة الحقيقية (الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة)، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:01، 1995م، ص: 151.

(2) - كتاب التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:01، (1403هـ-1983م)، ص: 241.

(3) - الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط:01، (1358هـ-1940م)، 13/01.

(4) - المصدر نفسه، الشافعي، ص: 19/01.

(5) - المصدر نفسه، الشافعي، ص: 19/01.

ولحم الخنزير، وبين لهم كيف فرضُ الموضوع، مع غير ذلك مما بين نصاً»⁽¹⁾. فالنص هنا هو ما أشار صراحة إلى الأحكام فهو من الوضوح بمكان لا يقبل معه الاستنباط والاجتهاد، فالنص على الفرائض واضح؛ وهو ما ذكره جلّ شأنه في كتابه العزيز من دون الحاجة معه إلى إيضاح.

أمّا مفهوم النص في عرف الأصوليين فقد تنقل بين الظاهر والمفسّر، والحقيقة والمجاز «النص بالفتح والتشديد هو في عرف الأصوليين يطلق على معان. الأوّل كلّ ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة سواء كان ظاهراً أو نصّاً أو مفسراً حقيقة أو مجازاً عامّاً أو خاصّاً اعتباراً منهم للغالب؛ لأنّ عامة ما ورد من صاحب الشرع نصوص، وهذا المعنى هو المراد بالنصوص في قولهم عبارة النصّ وإشارة النصّ ودلالة النصّ واقتضاء النص»⁽²⁾. ويعضد هذا القول تقسيم الإمام "الغزالي" (ت505هـ) للنص، فالنص: «ضَرْبانِ ضَرْبٌ هُوَ نَصٌّ بِلَفْظِهِ وَمَنْظُومِهِ... وَضَرْبٌ هُوَ نَصٌّ بِفَحْوَاهُ وَمَفْهُومِهِ»⁽³⁾. ثم يفرّق بين النص والظاهر عند حديثه عن اللفظ الدال الذي ليس بمحمل فهو: «إمّا أَنْ يَكُونَ نَصّاً وَإِمّا أَنْ يَكُونَ ظَاهِراً. وَالنَّصُّ هُوَ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، وَالظَّاهِرُ هُوَ الَّذِي يَحْتَمِلُهُ»⁽⁴⁾.

ثم يحدّد النص بأنه اسم مشترك، ويذكر أنّ العلماء أطلقوا لفظ النص على ثلاثة أوجه؛ هي⁽⁵⁾:
الأوّل: الظاهر؛ وهو ما أطلقه الإمام "الشافعي"، وهو ما يطابق حدّ اللغة. ويرى أنه لا مانع من إطلاقه في الشرع.

الثاني: الذي لا يتطرق إليه احتمال أصلاً لا على قُربٍ ولا على بُعدٍ كالخمسَة فإنه نصّ لا يحتمل الستة ولا الأربعة وكذا سائر الأعداد، ولفظ الفرس لا يحتمل الحِمَارَ والبَعِيرَ وَغَيْرَهُ، ويرى أنّ «كُلّ مَا كَانَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى مَعْنَاهُ فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ سُمِّيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَعْنَاهُ نَصّاً فِي طَرِيقِ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، أَعْنِي فِي

(1) - الرسالة، الشافعي، ص: 21/01.

(2) - موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تقديم: رفيق العجم، تحقيق: علي درجوح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط: 01، 1996م، 1695/2-1696.

(3) - المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01، 1413هـ-1993م، ص: 184.

(4) - المستصفى، الغزالي، ص: 196.

(5) - ينظر: المصدر نفسه، الغزالي، ص: 196.

إثباتِ الْمُسَمَّى وَنَفِي مَا لَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ الْإِسْمُ. فَعَلَى هَذَا حَدُّهُ اللَّفْظُ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْهُ عَلَى الْقَطْعِ مَعْنَى فَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَعْنَاهُ الْمَقْطُوعِ بِهِ نَصٌّ⁽¹⁾. ويرى أن هذا الوجه هو الأشهر بينها.

الثالث: اللفظ الذي لا يتطرق إليه احتمال لا يعضده دليل، فإن عضده دليل خرج عن كونه نصًا، ثم يفرق بين هذا الوجه والوجه الثاني الذي سبقه بقوله: «فَكَانَ شَرْطُ النَّصِّ بِالْوَضْعِ الثَّانِي أَنْ لَا يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ احْتِمَالٌ أَصْلًا، وَبِالْوَضْعِ الثَّالِثِ أَنْ لَا يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ احْتِمَالٌ مَخْصُوصٌ وَهُوَ الْمُعْتَصِدُ بِدَلِيلٍ. وَلَا حَجَرٌ فِي إِطْلَاقِ اسْمِ النَّصِّ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ لَكِنَّ الْإِطْلَاقَ الثَّانِي أَوْجَهُ وَأَشْهَرُ وَعَنْ الْإِشْتِبَاهِ بِالظَّاهِرِ أَبْعَدُ»⁽²⁾.

وبذا نرى أن المعنى الاصطلاحي لم يبعد كثيرًا عن دائرة المعنى اللغوي لكلمة (نص)، فهي تعني الظاهر الذي لا يحتمل التأويل، وأن لا يتطرق إليه احتمال إلا بشرط أن يعضد هذا الاحتمال بدليل. إلا أن هذا المفهوم بدأ يخرج من دائرة الخصوص إلى العموم الذي يشمل جميع ما ورد عن صاحب الشريعة، وكما رأينا من تعريف "التهانوي" (ت1158هـ) للنص، الذي أخذه عن "الكفوي" (ت1094هـ)⁽³⁾، ووسعه ليشمل فضلًا عن النصّ والمفسّر شمل أيضًا الحقيقة والمجاز عامًا وخاصًا.

وقد ورد هذا المصطلح عند هؤلاء الأصوليين بمعان مختلفة نوجزها في ما يأتي⁽⁴⁾:

- 1- عبارة النص: ويطلق على المعنى الحرفي للنص، فهو المعنى الظاهري الذي يبرز سطحيًا في النص.
- 2- إشارة النص: المعنى الذي لا يتبادر فهمه من ألفاظه ولا يقصد من سياقه، ولكنه معنى لازم للمعنى المتبادر من مقصود السياق.
- 3- دلالة النص: وهو ما يفهم من روح النص ومعقوله.
- 4- اقتضاء النص: وهو المعنى الذي لا يستقيم الكلام إلا بتقديره.

(1) - المستصفي، الغزالي، ص: 196.

(2) - المصدر نفسه، الغزالي، ص: 196.

(3) - ينظر: الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (دط)، (دت)، ص: 908.

(4) - ينظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، الزهراء للنشر والتوزيع، ط: 01، (دت)، ص: 144-150.

وكما نجد هذا المصطلح عند "الأزهر الزناد"، حيث يرى أنّه « نسيج من الكلمات يتربط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح (نص)»⁽¹⁾.

ويعلق "أحمد عفيفي" على هذا التعريف بقوله: « هكذا يهتم التعريف بالربط اهتماما كبيرا دون إشارة صريحة إلى الكتابة أو النطق، وإن كان فيه ميل إلى الملفوظ »⁽²⁾.

ومن التعريفات - كذلك - التي تقرّر أنّ النصّ كل لا يتجزأ ولا ينفصل، وتربط أجزاءه بعضها ببعض، نجد تعريف "محمد حماسة عبد اللطيف" الذي اشترط أنّ النص لا يصبح نصا « إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزا معينا، فيها جديلة محكمة مضمفورة من المفردات والبنية النحوية، وهذه الجديلة المضمفورة تؤلف سياقاً خاصاً بالنص نفسه ينبث في المرسلّة اللغوية كلها »⁽³⁾.

أمّا "سعيد يقطين" فيعرفه بقوله: « إنّ النصّ هو الخطاب المكتوب أو الشفوي الذي من خلاله نتمكن من قراءته. وبما أنّ النصّ هو الخطاب فلا بد من كاتب أو متكلم. لذلك فإن فعل أو عملية الإنتاج هي التي يمكن اعتبارها الجانب الثالث أي السرد. ومن خلال النص نتعرف على الصفة باعتبارها موضوعه والسرد باعتباره عملية إنتاجية »⁽⁴⁾، "يقطين" -من خلال تعريفه- لا يفرّق بين النص والخطاب، فالنص عنده خطاب مكتوب أو شفوي هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أنه حصر تعريفه واهتم بنوع خاص من النصوص وهو النص السردى أو الروائي.

ويجدر هنا أن نشير إلى الجهود التي قدمها "محمد عزام" في محاولة منه لبناء تعريف موحد للنص الأدبي يكون أقرب إلى الشمولية، والدقة التفصيلية. حيث يرى أنّ « النص الأدبي هو وحدات لغوية، ذات وظيفة تواصلية دلالية تحكمها مبادئ أدبية، وتنتجها ذات فردية أو جماعية »⁽⁵⁾، فمن خلال هذا

(1) - نسيج النص، الأزهر الزناد، ص: 12.

(2) - نحو النص، أحمد عفيفي، ص: 27.

(3) - منهج في التحليل النصي للقصيدة، محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصول، المجلد: 15، العدد: 02، 1996م، ص: 108.

(4) - تحليل الخطاب الروائي الزمن السرد التبعير، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، (دط)، 1997م، ص: 42.

(5) - النص الغائب تجليات التناس في الشعر العربي، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (دط)، 2001م، ص: 24. وقد

شرح المؤلف في كتابه تعريفه بالتفصيل، ينظر: ص: 24-25.

التعريف نستشف أن صاحبه قدم مبادئ وأسس وشروط ودعائم اعتبرها ضرورية لتحقيق شمولية النص الأدبي وهذه الأسس هي:

- الربط بين الجمل من خلال علاقات مختلفة تحقق للنص وحدته الدلالية.
- الوظيفة التواصلية الدلالية بين المبدع (المتكلم) والمتلقي (المستمع).
- الانسجام والتماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة للنص بفضل توظيف العناصر اللغوية كالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة ووسائل الربط كالعطف والجر.

ومن التعريفات أيضا تعريف "عبد الملك مرتاض" الذي يرى أنّ النص « لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية كالأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة والأحاديث النبوية التي تجري مجرى الأحكام وهلم جرا»⁽¹⁾، فواضح أنّ "مرتاض" في نظره الشكلية للنص لا يحدده بمعيار الكم والطول والقصر، فالنص عنده لا يتحدد بالجملة، فيمكن أن يكون النص جملة أو مجموعة من الجمل أو فقرة، وهذا ما نجده مثلا في الأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة التي تعتبر نصوصا قائمة بذاتها؛ لأنها تعبر بحق عن مظاهر الحياة العقلية والفكرية والتاريخية لأمة من الأمم أو ثقافة من الثقافات. أمّا من حيث نظره الدلالية للنص، فقد اعتمد "مرتاض" في تحديده لمفهوم النص على نظرية القراءة؛ « فالنص قائم على التجددية بحكم مقروئيته، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائته تبعا لكل حالة يتعرض لها في مجهر القراءة، فالنص من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد المتعدد بتعدد تعرضه للقراءة... في كل مراحله ومظاهره»⁽²⁾.

فالنص إذاً يتجدّد ويتعدّد بالقراءة، فقراءة (س) ليس كقراءة (ع)، وقراءة (ع) ليس كقراءة (س)، إنّ النص بعبارة أخرى: مفتوح على عدة قراءات، وهنا تظهر إبداعية وإنتاجية القارئ.

ومن التعريفات كذلك التي صنفت النص تصنيفا نوعيا وكيفيا تعريف "نور الدين السّد" الذي لم يعتمد تقسيم الخطاب إلى خطاب نفعي (براغماتي) وآخر فني، فالنص الأدبي عنده لا يمثل إلا أحد

(1) - نظرية النص الأدبي، عبد الملك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، 2007م، من ص: 03 إلى ص: 16.

(2) - المرجع نفسه، عبد الملك مرتاض، ص: 57.

الأنواع النصية العديدة والتي منها النص الأدبي، والنص القضائي، والنص السياسي، والنص الإشهاري... إلخ⁽¹⁾، ويؤكد -أيضا- أن نصية أي نص تتحقق من خلال تمتعه وخضوعه لجملة من الخصائص التي من أبرزها وأهمها الترابط بين عناصره اللغوية، فالنص في نظره ليس « مجموعة جمل فقط، لأنّ النص يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا، حوارا أو مونولوجا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها، من نداء استغاثة، حتى مجموع المناقشة الحاصلة طوال يوم في لقاء هيئة، والنصية تميز النص عما ليس نصا، فالنصية تحقق للنص وحدته الشاملة، ولكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة»⁽²⁾، هذه الوحدة النصية الشاملة التي يتحدث عنها "السد" تتحقق بمجموعة من الوسائل اللغوية، والتي يأتي على رأسها الاتساق الذي يعد المقوم الأساس في الحكم على نصية أي نص، فيقول: « إذا توافرت وسائل الاتساق كان المقطع اللغوي كلّا موّحدا، وإذا افتقد إلى الخصائص التي تميّزه، والوسائل التي تجعل منه متّسقا موّحدا وجملة غير مترابطة، فقد مقومات وجوده»⁽³⁾، ولتوضيح وبيان نصية أي نص ما ضرب "السّد" المثال الآتي: (اقطف قليلا من الزهور، ضعها في مزهرية قاعة الاستقبال)، غني عن البيان أن الضمير (ها) في الجملة الثانية يحيل قليلا إلى (الزهور) في الجملة الأولى، وما جعل الجملتين متسقتين هو وظيفة الإحالة القبلية للضمير "ها"، وبناء على ذلك فإن الجملتين تشكلان نصا⁽⁴⁾.

2 - ب) عند علماء الغرب:

قدّمت الدراسات الغربية أكثر من مفهوم لمصطلح النص، ومرّد هذه الكثرة حداثة هذا الضرب من اللسانيات، فمفاهيمه ومصطلحاته لم تستقر بعد، علاوة على تناوله من غير نظرية لغوية وتداخله مع

(1) - ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث (تحليل الخطاب الشعري والسردى)، نور الدين السد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (دط)، 1997م، 68/02.

(2) - الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، 69/02-70.

(3) - المرجع نفسه، نور الدين السد، 69/02.

(4) - ينظر: المرجع نفسه، نور الدين السد، 70/02.

النظريات النقدية الحديثة، فظهرت تعريفات تشرح مفهوم النص بصفة عامة، وأخرى تبرز الخواص النوعية الماثلة في بعض أنماطه المتعينة. ومن أهم التعريفات نذكر ما يلي:

- هاليداي ورقية حسن (Haliday, and Ruqaiya Hassan):

هما من أبرز علماء النص اللذين حاولا تحديد مفهوم النص في كتابهما "الاتساق في اللغة الانجليزية" (Cohésion in English) سنة (1976م)، فالنص عندهما هو عبارة عن « أي فقرة منطوقة أو مكتوبة على حد سواء مهما طالت أو امتدت... هي نص... والنص وحدة اللغة المستعملة، وليس محددًا بحجم... والنص يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة... والنص، اعتباره وحدة دلالية، وهذه الوحدة لا يمكن اعتبارها شكلاً؛ لأنّها معنى، لذلك فإنّ النص الممثل بالعبارة أو الجملة إنّما يتصل بالإدراك (الفهم)، لا بالحجم»⁽¹⁾.

نفهم من هذا التعريف أن النص لا يمكن أن يكون إلا وحدة دلالية (وحدة معنى)*، تمثل اللغة في التواصل أي في مقام وسياق ما، ومن جهة أخرى قد تكون هذه الوحدة الدلالية كلمة أو جملة أو عدة جمل، دون تحديدها بمقياس الكم طولاً أو قصراً.

- هارفج (R. Harweg):

يعرّف النص باعتباره « تتابع مشكل من خلال تسلسل ضميري متصل لوحات لغوية »⁽²⁾، فـ"هارفج" يركز في تعريفه هذا على الاتصال والترابط بين الوحدات اللغوية باستخدام أدوات الربط المختلفة كالضمائر، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة... إلخ.

- برينكر (K. Brinker):

نظرته للنص لا تختلف كثيراً عن سابقه "هارفج"، فهو يركز كذلك على التوالي والترابط للجملة حيث إن النص عنده « تتابع متماسك من علامات لغوية، أو مركبات من علامات لغوية لا تدخل أية وحدة

⁽¹⁾ - cohesion in English, Haliday M.A.K ,and Ruqaiya Hassan, Longman, 1st pub, New York, 1976, p: 01-02.

* ليس وحدة نحوية ممثلة في الجملة، فالذي يحكم الجملة هو البنية، والذي يحكم النص هو النسيج.

⁽²⁾ - مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتسيسلاف وأورزنيك، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 01، 2003م، ص: 55.

لغوية أخرى أشمل، فالنص بنية كبرى تحتوي على وحدات صغرى متماسكة ليست جملاً، وإنما أجزاء متوالية، وبهذا نرى أنّ النص يمكن أن يكون كلمة مفهومة، أو جملة لا تندرج تحت وحدة أشمل»⁽¹⁾.

فـ"برينكر" يعتبر النص أكبر وحدة لغوية وهو بذلك يخالف رأي الأمريكي "بلومفيلد" الذي يعتبر الجملة أكبر وحدة في التحليل والوصف، ولقي هذا التعريف انتقاداً من "شبلتر" الذي اعتبره «تعريف دائري، لأنه يوضح النص بالجملة من خلال النص، وهو تعريف غير منهجي لأنه لم يعتمد في ذلك على مفاهيم النص، وإنما عرف النص بالجملة»⁽²⁾. ويرى "برينكر" أنّ تعريفات النص المختلفة قد انطلقت من اتجاهين:

الأول: يقوم على أساس النظام اللغوي، وقد اعتمدت معظم التعريفات فيه إلى حد بعيد على تحديدات علم لغة الجملة ذات الأصل البنيوي أو التوليدي-التحويلي، حيث يظهر النص كتتابع متماسك من الجمل.

الثاني: يقوم على أساس نظرية التواصل، فيعرف النص بوصفه فعلاً لغوياً معقداً يحاول المتكلم به، أو كاتبه أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع والقارئ. وترتكز في ذلك على نظرية الفعل الكلامي المتطورة داخل الفلسفة اللغوية الأنجلوسكسونية⁽³⁾.

واقترح "برينكر" في نهاية عرضه للاتجاهين مفهومًا يجمع ويدمج الجانبين اللغوي البنيوي والتواصلية السياقي، فيعرف النص على أنه «وحدة لغوية تواصلية في الوقت نفسه»⁽⁴⁾.

(1) - البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، (دت)، ص: 71.

(2) - علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونيحمان، مصر، ط: 01، 1997م، ص: 103.

(3) - ينظر: التحليل اللغوي النصي، كلاوس برينكر، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط: 01، 2005م، ص: 22-26.

(4) - التحليل اللغوي النصي، كلاوس برينكر، ص: 28.

- فاينريش (H. Weinrich):

حدّه بأنّه: « تكوين حتمي يحدد بعضه بعضا، إذ تستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم الكل »⁽¹⁾، فهو يعتبر النص كل متكامل، تستلزم عناصره بعضها بعضا، فيؤدي الفصل بين أجزائه إلى غموضه وعدم وضوحه، فمكوناته تخضع لمبدأ الحتمية.

- هارتمان (P. Hartman):

يعرف النص بقوله: « متوالية من الكلمات المنطوقة فعلا في اللغة، فالنصوص قد تكون نسخا منقولة أو مادّة مسجّلة، أو أن تكون نتيجة تدوين عمل أدبيّ، أو قطعة من معلومات -نصّ رسالة - مثلا»⁽²⁾. فالنص - حسب هارتمان - هو منظومة الكلام المدونة، وهذا التعريف يقترب من تعريفات الذين فرّقوا بين النصّ (Text)، والخطاب* (Discourse)، فالخطاب هو « امتداد متواصل من وحدات لغوية أكبر من الجملة -المنطوق منها خاصة- »⁽³⁾. واعتبر في موضع آخر أنّ الجملة في النص لا نستطيع فهمها إذا كانت معزولة ومنفصلة عن الجمل الأخرى، فمعنى هذه الجملة يتحدد ويتحقق من خلال النص الكلي، ودخولها (الجملة) في علاقات مع بقية الأجزاء (الجمل) الأخرى⁽⁴⁾.

(1) - يشرح "محمد العبد" تعريف "فاينريش" للنص فيقول: « هو كلية مترابطة الأجزاء، فالجمل يتبع بعضها بعضا وفقا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهما أفضل». ينظر: اللغة والإبداع الأدبي، محمد العبد، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، 1987م، ص: 36.

(2) - Dictionary of Language and linguistics, Hartman, R.R. K and F. C. stork, Applied Science published, London, 1972, p: 238.

* يبدو أنّ ثمة خلط بين مفهومي النص والخطاب، ولاسيّما عند أصحاب الاتجاه اللغوي المعروف بـ(تحليل الخطاب)، إذ نجد تداخلا كبيرا في تعريفات الخطاب مع ما يعرف بـ(النص)، كذلك الآليات المستخدمة في تحليل الخطاب هي ذاتها مستعملة في تحليل النصوص، فنجد الحديث عن تواصلية الخطاب، ومقام الخطاب، وعلاقات الترابط بين وحدات الخطاب... وغيرها، وهناك من لا يرى فرقا بين النص والخطاب فهما متلاحمان، كما في قول رولان بارت: « فالنص يظل في كل الأحوال متلاحما مع الخطاب، وليس النص إلا خطابا، ولا يستطيع أن يوجد إلا عبر خطاب آخر». علم النص ضمن كتاب آفاق التناسية (المفهوم والمنظور)، رولان بارت، ترجمة: محمد خير البقاعي، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 1998م، ص: 44.

(3) - A Dictionary of Linguistics and phonetics, David Crystal, Black well published, (3rd ed), London 1991, S.V (Text), p: 106.

(4) - ينظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، ص: 140.

- تودوروف (T. Todorof):

يفرّق "تودوروف" بين النص وبين الفقرات، بما هي وحدة منظمة من عدة جمل، ويقول بإمكان أن يكون النص جملة أو أن يكون كتاباً بأكمله، ويرى أن النص يقوم على أساسين: استقلالته وانغلاقته، فنظامه لا يتساوى مع نظام الجمل المكونة له؛ فهو يؤلف نظاماً خاصاً به. وفي محاولته لإبراز الخصائص النوعية للنص تحدّث عن مظاهر النص، وعدّها ثلاثة مظاهر، وهذه المظاهر بمثابة مستويات تحليل النص عند "تودوروف" وهي كالآتي⁽¹⁾:

- 1- المستوى اللفظي: وهو مؤلف من العناصر الصوتية، والقاعدية التي تؤلّف جمل النص.
- 2- المستوى التركيبي: ويركز على العلاقات التي توجد بين الوحدات النصية الصغيرة؛ أي الجمل، ووحدات الجمل.

3- المستوى الدلالي: الذي هو نتاج معقّد توحى بها المستويات جميعها، منفردة ومتشابكة.

- لوتمان (L. Lotman):

لم يقتنع "لوتمان" بكل التعاريف السابقة، حيث وجد النص يعتمد على ثلاثة مكونات⁽²⁾:

- 1- التعبير: فالنص من هذه الوجهة يتمثل في علاقات محددة تختلف عن الأبنية القائمة خارج النص. فإذا كان النص أدبياً فإن التعبير يتم فيه من خلال علامات اللغة الطبيعية، والتعبيرات تجربنا على أن نعتبر النص تحقيقاً لنظام، وتحسيماً مادياً له.

- 2- التحديد: يحتوي النص على دلالة غير قابلة للتجزئة، مثل: أن يكون (قصة) أو يكون (وثيقة) أو أن يكون (قصيدة)، مما يعني أنه يحقق وظيفة ثقافية محددة، ويقوم بنقل دلالتها الكاملة والمحددة، والقارئ يعرف كل واحد من هذه النصوص بمجموعة من السمات، ولهذا السبب فإنّ نقل سمة ما إلى نص آخر يعدّ وسيلة جوهرية لتكوين دلالات جديدة، ويؤدي تراتب أي نص وانقسام نظامه إلى نظم فرعية مركبة إلى قيام مجموعة من العناصر التي تنتمي إلى بنيته الداخلية بالبروز كحدود واضحة لنظم فرعية أخرى من أنماط مختلفة، وذلك مثل: حدود الفصول، والمقاطع، والأشطار، والأبيات، والفقرات.

(1) - النص والأسلوبية، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط: 01، 2000م، ص: 15-16.

(2) - ينظر: علم لغة النص، سعيد حسن بحيري، ص: 116-117.

3- الخاصية البنوية: أي أنّ النص لا يمثل مجرد متوالية من مجموعة علامات تقع بين حدين فاصلين، بل يتضمن تنظيما داخليا يحيله إلى مستوى متراتب أفقيا في كل بنيوي موحد لازم للنص، فبروز البنية شرط أساس في تكوين النص.

- فان دايك (T. Van dijk):

يقول "فان دايك": « إنّ الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي، ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وتعبير آخر: إنّ الخطاب هو الموضوع الأمبريقي والمجسد أمامنا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد والمفترض. إنه نتاج لغتنا العلمية»⁽¹⁾.

يظهر من هذا التعريف أنّ صاحبه يفرّق بين النص والخطاب من جهة، ومن جهة أخرى ينظر إلى النص على أنه بناء نظري مجرد يتجسد من خلال الخطاب، بوصفه فعلا تواصليا، وفي ذلك التفتاة مهمة إلى الجانب التداولي في النص.

- جوليا كريستيفا (J. Kristiva):

تحدّد النص بأنّه: « جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة، بالربط بين كلام تواصلية يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه. فالنص إذن إنتاجية»⁽²⁾. وهي تعني أمرين هما⁽³⁾:

أ - أنّ علاقته (النص) باللسان الذي يتموقع داخله علاقة إعادة توزيع، مما يجعله قابلا للتناول من خلال المقولات المنطقية لا اللسانية الخالصة.

(1) - افتتاح النص الروائي (النص والسياق)، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط: 02، 2001م، ص: 16.

(2) - علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، ومراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط: 01، 1991م، ص: 21. فهذا التعريف خطّي باهتمام خاص؛ لأن صاحبه « تؤمن بأنّ التعريفات السابقة له كانت تقتصر على مراعاة مستوى واحد هو السطح اللغوي أو ظاهر النص فقط، فالنص عندها هو عملية إنتاجية أدبية (Productivities) » ينظر: نحو النص، أحمد عفيفي، ص: 28.

(3) - ينظر: علم النص، جوليا كريستيفا، ص: 21.

ب- أنّه ترحال للنصوص وتداخل نصي؛ ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتناهى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى.

من هذا نلاحظ أنّ "كريستيفا" تنطلق في تحديد النص من مفهوم التناص، أي تنظر إلى النص من حيث إنتاجه كنص يتقاطع ويتداخل ويتعلق مع نصوص أخرى.

- رولان بارت (R. Barthes):

فالنص عنده لا يمكن أن يكون نقيا وبريئا؛ لأنه في جوهره مجموعة من النصوص المتداخلة فهو «عملية إنتاج... النص قوة متحولة تتجاوز جميع الأجناس والدرجات المتعارف عليها لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الحدود وقواعد المعقول والمفهوم... النص مفتوح ينتجه القارئ في عملية مشاركة. لا مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التأليف»⁽¹⁾.

انطلاقا من هذا القول، فالنص عملية إنتاجية دلالية تتحقق ببناء انسجام العمل وتماسكه، ولكن ليس على المستوى الجزئي، كما هو الحال عند "هاليداى"، ولكن على المستوى الكلي بتوسيع مفاهيم الربط والتعليق والإحالة والحذف التي أقرها هذا الأخير⁽²⁾. فهذا التعريف أيضا يشير إلى أن النص مفتوح ليس مغلقا، مفتوح أمام عدة قراءات، فللقارئ مكان جوهري في عملية التفسير لا تقل مكانة عن دور المنتج، وهذا ما يعبر عليه بسلطة القارئ.

ونختتم هذه التعريفات بالتعريف الذي نقله "سعد مصلوح" وسعيد بحيري" عن "روبرت ألان دي بوجراند" (Rebert Alain De Beagrande)، والذي رآه "صبحي إبراهيم الفقي" تعريفا جامعا⁽³⁾؛

(1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1992م، العدد: 164، ص: 213-214.

(2) - ينظر: لسانيات الاختلاف الخصائص الجمالية لمستويات بناء النص في شعر الحداثة، محمد فكري الجزار، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 01، 2001م، ص: 03.

(3) - ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 01، (1431هـ- 2000م)، 33/01.

لأنّ النص لدى "ديوجراند" « حدث تواصل يُلزم لكونه نصاً أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، وإذا تخلف واحد منها تنتزع منه صفة النصية* »⁽¹⁾. وهذه المعايير هي⁽²⁾:

1 - السبك أو الربط النحويّ (Cohésion):

يعبر عليه أيضاً بالاتساق، فهو « يعني تحقيق الترابط الكامل بين بداية النص وآخره دون الفصل بين المستويات اللغوية المختلفة حيث لا يعرف التجزئة ولا يحدده شيء »⁽³⁾. فهو « يشتمل على الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة »⁽⁴⁾.

2 - الحبك أو التماسك الدلاليّ (Coherence):

يعبر عليه أيضاً بالانسجام، وهو « يشتمل على الإجراءات المستعملة في إثارة عناصر المعرفة من مفاهيم وعلاقات، منها علاقات منطقية كالسببية والعموم والخصوص، ومنها معرفة كيفية تنظيم الحوادث، ومنها أيضاً محاولة الاستمرارية في الخبرة البشرية »⁽⁵⁾، فالحبك هو علاقة معنوية بين عنصر في النص وعنصر آخر يكون ضرورياً لتفسير هذا النص، هذا العنصر الآخر يوجد في النص، غير أنه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق هذه العلاقة التماسكية، وبهذا يكون السبك مرتبطاً باللفظ، والحبك مرتبط بالمعنى⁽⁶⁾.

* وقد أطلق "أحمد مداس" مصطلح النصية على السبك والحبك فقط، ذلك لأن بقية المصطلحات ما هي إلا عناصر تندرج بداخلهما. ينظر: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، أحمد مداس، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط: 01، 2007م، ص: 03.

(1) - نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية، سعد عبد العزيز مصلوح، مجلة فصول، المجلد: 10، العدد: (يوليو، أغسطس 1991م)، ص: 154.

(2) - ينظر: النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط: 01، القاهرة، 1998م، من ص: 103 إلى ص: 107.

(3) - نحو النص، أحمد عفيفي، ص: 96.

(4) - مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراند وولفجانج دريسلر، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مطبعة دار الكتاب، ط: 01، (1413هـ - 1992م)، ص: 11.

(5) - مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراند وولفجانج دريسلر، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ص: 11-12.

(6) - ينظر: نحو النص، أحمد عفيفي، ص: 98.

3 - القصد أو القصدية (Intentionality):

فالنص ليس بنية عشوائية، وإنما هو عمل مقصود به أن يكون متناسقا من أجل تحقيق هدف محدد، فقصدية المنتج تكمن في توفير التضام والتقارن في نصه⁽¹⁾، وهذا المعيار يتعلق بمستعملي النص.

4 - الإخبارية أو الإعلامية (Informativity):

وهي « تشتمل على عامل الجدة (اللايقين النسبي لوقائع النص بالمقارنة مع الوقائع الأخرى المحتملة الحدوث) »⁽²⁾.

5 - المقامية أو الموقفية (Situationality):

وتتعلق بمناسبة النص للموقف والظروف المحيطة به أي بالسياق الثقافي والاجتماعي للنص، ويعني أن يكون النص موجّها للتلاؤم مع حالة أو مقام معين بغرض كشف مكنوناته أو تغييره، وقد يكون هذا الموقف الذي يحمله النص مباشرا يدرك بسهولة، وقد يكون غير مباشر يحتاج إلى جهد في الإدراك، ويفترض هذا العنصر وجود مرسل ومرسل إليه.

6 - القبول أو التقبيلية أو الاستحسان* (Acceptability):

وهي ترتبط بالمتلقي وحكمه على النص بالقبول والتماسك أو تتضمن موقف مستقبل النص إزاء كونه صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام⁽³⁾.

(1) - مدخل إلى علم لغة النص، إهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ص: 12.

(2) - مدخل إلى علم لغة النص، إهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ص: 12.

* كلمة استحسان كلمة تراثية تقابل مصطلح (Acceptabilité) استعمالها "سيبويه" عند حديثه عن الكلام المستحسن، ينظر: من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص، بشير ابرير، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية (التواصل)، العدد: 14، جامعة باجي مختار، عنابة، 2004م، ص: 100.

(3) - ينظر: نحو النص، أحمد عفيفي، ص: 79-80.

7 - التناص* (Intertextuality):

يتعلق هذا العنصر كسابقه بالسياق الثقافي والاجتماعي فيرى "دي بوجراند" و"دريسليز" أنّ التناص هو أهم العناصر المحققة للنصانية فهو «عملية استبدال من نصوص أخرى»⁽¹⁾، على حد تعبير "صلاح فضل".

فيظهر جلياً من هذا التعريف الذي تبناه الفقّي أنه تعريف شامل من أمرين، أولاهما: أنه لا يلغي أحد أطراف الحدث الكلامي في التحليل؛ فهو يجمع المرسل والمتلقي والسياق وأدوات الربط اللغوية، ثانيهما: أنه اهتم بكافة عناصر التحليل النصي، ولا يعطي عنصراً اهتماماً أكثر على حساب العناصر الأخرى، بل يوازن ويساوي بينها. فلا يفعل كما تفعل البنيوية مثلاً فتضخم بنية النص على التاريخ، وتنظر إلى القارئ أنه مجرد متلق سلبى لا حول له ولا قوة أمام رياضيات النص.

من هذه المفاهيم نخلص إلى أنّ مقارنة النصوص انتقلت من التحليل على مستوى الجملة إلى التحليل على مستوى النص باعتباره البنية الكبرى التي ينجز فيها مجموع من الجمل المتعلاقة مع بعضها البعض وأحياناً في جملة واحدة⁽²⁾، إذًا فالعلاقة بين الجملة والنص لا تقوم على أساس الحجم بل على أساس الإجراء والإنجاز (Réalisation) بتفسير نظام علامي في آخر⁽³⁾.

وفي الأخير نقول إن كل التعريفات المختلفة التي حاولت أن تقترب من مفهوم النص لا تخرج عن أحد هذه المعايير⁽⁴⁾:

- التأكيد على الحد الكتابي أو الحدود الكلامية، أو كليهما.

- مراعاة البعد الدلالي.

* هذا المصطلح يشير كثيراً من الإشكالات بين الباحثين خاصة المحدثين، وللاستزادة ينظر:

- النص الغائب، محمد عزام، ص: 26.

- نحو النص، أحمد عفيفي، من ص: 81 إلى ص: 84.

- مدخل إلى علم لغة النص، الهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، من ص: 233 إلى ص: 267.

(1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص: 229.

(2) - ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش، 145/01.

(3) - ينظر: المرجع نفسه، محمد الشاوش، 144/01.

(4) - ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقّي، 29- 28/01.

- مراعاة حجم النص.
- مراعاة الجانب السياقي وهو متعلق بالجانب التداولي.
- مراعاة التماسك النصي: (نرى أغلب اللسانيين يصرون على وحدة وتماسك النص، وهو القاسم المشترك لكل التعريفات التي تراهن على أن النص وحدة متكاملة تشدّها خاصية الترابط).
- مراعاة الجانب الوظيفي.
- التأكيد على البعد التواصلية بين المنتج والمتلقي.
- الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية، مثل الكفاءة والأداء... وغيرها.
- إبراز كونه مقيّداً.

فإذا توافرت هذه الشروط في نص ما من النصوص، يمكننا حينها أن نطلق عليه نصاً كاملاً. وإلى جانب هذا المصطلح نجد مصطلح الخطاب، فهما مصطلحان محوريان في علم لغة النص أو لسانيات النص باعتبارهما المادة الأولية لإجراء عملية التحليل والدراسة، لذلك من الضروري والأولى بنا الوقوف على مفهوم هذين المصطلحين، وتبيين المعايير التي تمنح نموذجاً لغوياً ما صفة النصية. إنّ مفهوم الخطاب (Discours) يقع في تحديد مفهومه بين الملفوظ والمكتوب كفعل لغوي⁽¹⁾، فهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم، أما في اللسان فقد جاء بمعنى مراجعة الكلام، وفي المعاجم الحديثة جاء مصطلح الخطاب بتعريفات عدة منها: إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام، بحيث تتسلسل الكلمات وتترتب، كما أنه قد يكون شفويّاً أو تحريراً يعالج موضوعاً بشيء من التفصيل، وكما تحدده إحدى المعاجم بأنه الكلام المنطوق عندما يتجاوز الجملة الواحدة طوياً⁽²⁾.

وينظر من خلال تلك التعريفات التي تناولتها تلك المعاجم اقتصار مفهومه على اللغة المنطوقة. ولرصد دلالة هذا المفهوم عند رواده فإننا في البداية سنجدّها عند "هاريس" (Z. Harris) في تحديده لهذا المصطلح بأنّه « ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تتكون من مجموعة منغلقة يمكن من خلالها

(1) - ينظر: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، أحمد مداس، ص: 10.

(2) - ينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش، ص: 22.

معينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نطل في مجال لساني محض»⁽¹⁾، كما أنه أيضا وحدة تساوي أو تفوق الجملة، مكون متتالية تشكل رسالة ذات بداية ونهاية⁽²⁾، وهو كذلك «متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين، كما يحدث في الحوار وغيره»⁽³⁾. واعتبر كذلك «حدثا كلاميا يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، المستقبل أو الجمهور، الرسالة أو الموضوع، والهدف»⁽⁴⁾، لقد سوّت هذه التعريفات بين المنطوق والمكتوب، وكذلك ركّزت على الجانب التواصلية باعتبار الخطاب رسالة لغوية تحمل أهدافا إخبارية وقصدية.

ونضيف إلى هؤلاء الذين سوّوا بين النص والخطاب، وانطلقوا في تحديدهم للنص من تحديد الخطاب "رومان جاكبسون" (R. Jakobson) الذي يرى أنّ الخطاب الأدبي ما هو إلا «نص تغلب فيه الوظيفة الشعرية للكلام، وهو ما يقضي حتما إلى تحديد ماهية الأسلوب بكونه الوظيفة المركزية المنظمة»⁽⁵⁾، فهذا التعريف - كما يرى نور الدين السد - اشتغل على الوظيفة الشعرية كونها الوظيفة الأساس والعمدة في الخطاب/النص الأدبي، وهذا مقارنة بالوظائف اللغوية الأخرى* فالنص عند "جاكبسون" ما تركّب في ذاته ولأجل ذاته.

ومن التعريفات التي تميّز وتفرّق بين النص والخطاب تعريف "فان دايك" الذي يرى أنّ الخطاب «هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي، ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وتعبير آخر: إنّ الخطاب هو الموضوع الأمبريقي والمجسّد أمانا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد والمفترض. إنه نتاج لغتنا العلمية»⁽⁶⁾. فواضح من خلال هذا التعريف أنّ الخطاب هو عملية تلفظية آنية تحمل دلالات معينة تتجسّد كفعل تواصلية، تُظهر وتكشف

(1) - ينظر: لسانيات النص، أحمد مداس، ص: 11.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، أحمد مداس، ص: 10.

(3) - الخطاب القرآني، خلود العموش، ص: 23.

(4) - المرجع نفسه، خلود العموش، ص: 23.

(5) - الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، 11/02.

* كالوظيفة المرجعية، والوظيفة التعبيرية، والوظيفة الانتباهية، والوظيفة الإفهامية ووظيفة ما وراء اللغة. ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، 11/02.

(6) - انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، ص: 16.

نفسية وثقافة الأطراف المشاركة في مواقف وسياقات مختلفة، وأما النص فهو الشكل المجرد أو البنية المجردة والمفترضة لا يتحقق إلا من خلال الإنجاز، فعملية التلفظ (الإنجاز الفعلي) تحوّل الشكل المجرد، والمفترض إلى صورة مسموعة ومرئية ظاهرة، أو بعبارة أخرى يتحول الموضوع المجرد من الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل.

ونستطيع أن نستنتج الفرق بين الخطاب والنص من خلال أن:

الخطاب = النص + ظروف الإنتاج.

النص = الخطاب - ظروف الإنتاج.

ورغم هذا التفريق بين النص والخطاب، وأنّ الثاني أعمّ وأشمل من الأول، أي: كلّ خطاب نص، وليس كلّ نص خطاب، فإننا نعتقد أنه فرق بسيط، وغير مقنع إلى حدّ ما، وبذلك لم نفرق بين المصطلحين في هذا البحث.

إنّ مصطلح النص - كما ذكرنا آنفاً - اختلفت وتضاربت الآراء في تحديد تعريف موحد له، ولكن رغم هذا الاختلاف والتباين لم يمنعنا أن نتكئ، ونعتمد عن رأي شامل لا يلغي أحد أطراف الحدث الكلامي في التحليل النصي يجمع المرسل، والمتلقي، والسياق، وأدوات الربط اللغوية، وغير اللغوية التي تحقق تماسك النص وانسجامه أو بعبارة أخرى تحقق نصية النص، فالنص كما سمعت مشافهة من أستاذي "صالح خديش" بنية دالة، أي: كل متكامل تتفاعل عناصره لتؤدي وظيفة معينة*.

فمفهوم النص بهذا يركز على ثلاثة عناصر أو قواعد أساسية لا يمكننا التحدث عن البنية إلا بالاعتماد عليها، وهذه العناصر هي: التكامل والتفاعل والوظيفة، أي بصورة أخرى:

النص = بنية دالة.

البنية = التكامل + التفاعل + الوظيفة.

ومنه: النص = التكامل + التفاعل + الوظيفة.

* التعريف الذي ذكرناه من محاضرة بعنوان: من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص، ألقاها الدكتور في: 11 فيفري 2008م، الساعة: 09:30 صباحاً، بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة.

فالمقصود بالتكامل هو أنّ هذه البنية لا تقبل الطرح ولا الإضافة، فهي تُدرس ككل متكامل لا تقبل التجزئة، أما التفاعل فيقصد به تفاعل المستويات الأربعة المعروفة: الصوتي والمعجمي والدلالي والتركيب، فيبحث المحلل النصي على الأصوات المسيطرة في النص، أو بعبارة أخرى يبحث على الفونيمات (phoneme)* التي لها دلالة أو وظيفة تمييزية، فالشاعر عندما يوظف صوتاً معيناً يقصد تبليغ دلالة أو وظيفة معينة، وتتجلى هذه الدلالة أو الوظيفة من خلال علاقته (الفونيم) بالعناصر الأخرى.

3 - وظيفة النص:

يعدّ مصطلح وظيفة النص من المصطلحات البارزة في لسانيات النص، والوظيفة تمثل المعنى المحصل من استعمال الألفاظ أو الصورة الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي⁽¹⁾، و« تفهم وظائف النص على أنها تعليمات موجهة إلى متلقي النص تحددها مقاصد المرسل، وهي الوظائف التي تبلغه عن كيفية الفهم المرغوبة لدى المرسل. لذا لا تكون وظيفة النص مساوية لقصد المرسل، بل هي القصد المشفّر في النص، المطبوع في النص على أنه أداة اتصال »⁽²⁾. فهذه الوظيفة النصية يشار إليها بوسائل داخل النص أي الوسائل اللغوية، ويشار إليها بوسائل خارج النص (سياقية)، نطلق عليها قياساً على مؤشرات الإنجاز مع أفعال كلامية بسيطة (مؤشرات وظيفة النص). وهذه المؤشرات منها صيغ وأبنية لغوية يعبر بها الباحث أو المبدع بشكل صريح عن نوع الاحتكاك التواصلية المقصود حيال المتلقي، وهذا فيه إشارة إلى وظيفة النص باستخدام الصياغات الأدائية ونماذج متكافئة للجملة. وهناك صيغ وأبنية لغوية يعبر بها المبدع بشكل صريح أو ضمني عن موقفه من مضمون النص وخاصة الموضوع النصي، وذلك بإبداء درجة اليقين بالمعرفة، وذلك باستخدام: حقاً، وبالتأكيد، والظاهر أن، ومن المحتمل، ومطلقاً، أو يعبر عن صدق مضمون النص من عدمه بتوظيف (يعرف، يظن، يشك)،

* الفونام: هو أصغر وحدة صوتية ليس لها دلالة، لكن لها وظيفة تمييزية، ومثاله الفعلان (سار) و(صار)، حيث أبدلت السين صاداً، فأدى ذلك إلى تغير في المعنى، أي أن هناك فونيمين (س) و(ص).

(1) - أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل مصطفى الساقى، تقديم: تمام حسان، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دط)، (1397هـ-1977م)، ص: 203.

(2) - مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفانج هاينه من وديتر فيهفيجر، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، (دط)، (1419هـ-1999م)، ص: 194.